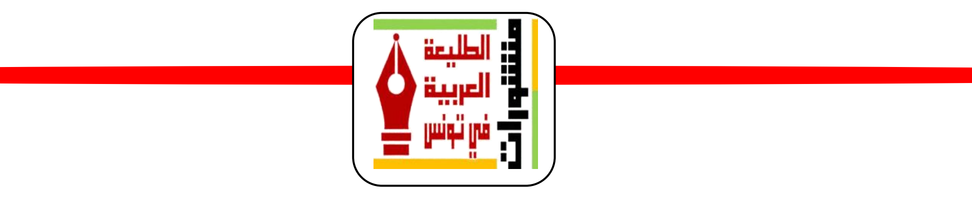
الدكتور سعدون حمادي

الوحدة العربية والتجزئة والحرب



منشورات الطليعة 1987



النكبة وقضية الوحدة العربية (*)

الدكتور سعدون حمادي

الكارثة القومية التي أصابت بلادنا تستدعي الكتابة، ومصدر الكتابة الصادقة دوما هو اهتزاز الوجدان الذي يحرك بدوره التفكير. ان الوضع المتخلف لأمتنا كان دوما يدفع للتفكير والكتابة عن ذلك التفكير. فالفارق الشاسع بين ما هو كائن وبين ما نريد أن يكون لبلادنا في هذا العصر كان دوما مصدراً للألم والتوتر النفسي الذي عبرت عنه الكتابة إلى حد ما. لذلك سيبقى للكتابة مكان ودور ما دام للتفكير مكان ودور. أما الفارق بين الكتابة الآن وبينها في غير هذه الاوقات هو أنها لا يمكن إلا أن تكون منفعلة مشحونة بالعاطفة وبعيدة عن التعقيد. وقد يكون كل ذلك من الحسنات بعكس ما قد يظن البعض، فكل الأمور الكبيرة في التاريخ لم ينجزها البشر إلا عندما كان مشحوناً بالعاطفة، العاطفة الانسانية النبيلة لتحقيق رسالة أو لصد عدوان أو لتوطيد العدل أو الثأر للكرامة. والامور الكبيرة في التاريخ كانت دوما بسيطة واضحة.

في سنة ١٩٤٨ حدث احتلال اجنبي لجزء من البلاد العربية وهو احتلال يختلف عن غيره كما هو معروف، فقد كان قيام دولة اسرائيل في ذلك الوقت يعني ظهور عدو متعصب همه الاول والأخير هو زيادة قوته والاستعداد للتوسع وازاء ذلك كان الرد المناسب الوحيد هو الوحدة العربية والاستعداد للحرب ولكن ذلك لم يحدث كما يجب.

(*) نشر هذا المقال في: دراسات عربية، السنة ١٠، العدد ٤ (شباط/فبراير ١٩٧٤)، ص ٢ ـ ١١.

وطيلة كل ذلك الوقت كانت الدلائل تتوالى وكلها تشير بوضوح إلى خطر العدو من جهة، وتأخر الرد المناسب الوحيد من جهة أخرى. وجاءت حرب ١٩٥٦ ضد مصر وظهرت القضية نفسها على السطح مضيفة انذاراً جديداً ودليلاً جديداً على الخطر الموجود وضرورة الرد المناسب. السؤال الاساسي هو لماذا لم يتحقق الرد المناسب؟ لماذا لم تستطع البلاد العربية ـ أو بعضها على الاقل ـ أن تتحد بدولة عصرية جديدة؟ للجواب عن هذا السؤال لا بد من بعض التحليل.

للحركات القومية في البلاد العربية نظرية أصبحت معروفة عن مسألة الوحدة تفسر وضع التجزئة وأسبابه وتفسر كيفية الانتقال لوضع التوحيد. ويمكننا تلخيص هذه النظرية بالقول ان الاستعمار قد خلق وضع التجزئة بعد الحرب العالمية الأولى وخلق نظماً إقليمية للحكم موالية له تضمن له بقاء مصالحه ونظم الحكم الاقليمية المتحالفة مع الاستعمار هي الأخرى قد طورت بمرور الوقت مصالح اقتصادية وسياسية قطرية تجعلها تتمسك بالوضع الموجود وتقاوم بالتالي كل اتجاه نحو التوحيد. وقد ازداد التناقض بين أنظمة الحكم الاقليمية وبين الحركة الوحدوية بخاصة بعد تطور الحركة القومية في اتجاه التقدم والاشتراكية. إذن ـ وحسب تسلسل النظرية في التفسير ـ فوضع التجزئة مرهون ببقاء أنظمة الحكم هذه في الحكم وأن الوحدة لا بد أن تبدأ بإزالة هذه الأنظمة ووصول الحركة القومية إلى الحكم. هذا ما تقوله النظرية القومية وهو تفسير صحيح يرتكز على أن العقبة في طريق الوحدة عقبة موضوعية هي الأنظمة الموالية للاستعمار.

إن الاستعمار الغربي لا يقاوم في الوطن العربي حركة أكثر من حركة الوحدة لأنه يدرك مقدما الاخطار الجسيمة على وجوده في المنطقة من جراء قيام دولة كبيرة قوية وقد جند لمقاومة ذلك إلى جانب النشاط السياسي والاقتصادي والعسكري مؤسسات الفكر والبحث العلمي للتشكيك بوحدة الشعب العربي وذلك أمر يعرفه المطلعون على النشاط الثقافي في الغرب. حقاً لقد كانت هذه النظرية سليمة وصحيحة إلى هذا الحد في تفسير الوضع ومنسجمة مع الواقع.

وحدثت بعد ذلك تطورات خلقت الارتباك في هذه النظرية وجعلتها في وضع ضعيف. لقد قامت الثورة في مصر وسورية والعراق ووصلت الحركة القومية ـ بأجنحة

متعددة ـ الى الحكم، وقامت الثورة في اليمن وهي بالاتجاه نفسهوتطورت الجزائر المستقلة بالاتجاه نفسه إلى حد بعيد. ومضى وقت ليس بالقصير، ولكن الحل المناسب لم يتحقق، وكلّنا نعرف التاريخ القريب. فكيف نستطيع تفسير ذلك؟

إنّ النظرية القومية ببساطتها القديمة لم تعد قادرة على تفسير الوضع الجديد. كثير من الناس يحب التفسير بالعوامل الموضوعية كجزء من الميل العام للتفسير العلمي للأشياء، ولكن ذلك من المنزلقات والمصائد الفكرية التي يجدر الانتباه إليها. إن عالم نيوتن كان عالماً آلياً موضوعياً بحتاً ولكن آراء داروين قد كشفت أيضاً عالماً للغرائز والعواطف، وتطور علم النفس الحديث قد كشف أهمية الأمور الذاتية أيضاً، والتفسير الصحيح هو التفسير الكامل الذي يعتبر كل العوامل لا بعضها. التفسير الكامل تفسير أصعب من التفسير الجزئي لذلك كان هناك دوما الميل إلى التبسيط بحذف العوامل المتحركة الصعبة الفهم والاقتصار على العوامل الثابتة الواضحة. ولنعد لمسألة الوحدة. كيف نستطيع تفسير بقاء الوضع العربي المجزأ على ما هو عليه بعد زوال الأنظمة القديمة ووصول الحركات القومية إلى الحكم؟ كيف نستطيع تفسير التناقضات التي ظهرت داخل الحركة القومية والتي حالت دون الوحدة؟ كيف نستطيع تفسير بقاء وضع التجزئة بالرغم من وجود خطر أكيد واضح على كيان واستقلال تلك الأقطار العربية؟

إن الاقطار العربية التي زالت منها الأنظمة القديمة كان محتما عليها أن تتحد إن لم يكن بدافع عقائدي نابع من ايمان الأنظمة الجديدة بالوحدة العربية فبدافع عملي بحت هو المحافظة على الوجود ازاء الخطر الأكيد القريب. ولكن ذلك لم يحدث حتى وقعت الكارثة الجديدة التي هي في حقيقتها لم تأت بأي شيء جديد ولم تظهر أي حقيقة جديدة، فالحقيقة كانت موجودة والوضع الذي أدى إلى الكارثة كان موجوداً من قبل. إن هول الكارثة وفداحة الخسارة المادية والمعنوية التي نتجت عنها ليست إلا نتائج للوضع الموجود، لذا فليس من الصعب أبداً تفسيرها. إن ضعف الوضع العربي الذي يرجع في تحليله النهائي إلى التجزئة وكل ما يرافق ذلك وينتج عنه من تخلف وتضارب وهدر للجهود وتفتيت للقوى ازاء قوة العدو ونموه واتحاده وحشد قواه وفعاليته في استخدام الطاقات الموجودة وخلق طاقات جديدة ان هو إلا وضع لا بد أن يؤدي إلى هذا النوع من الكوارث إذ كل ما في الامر أن الوضع الحالي ليس إلا مناسبة ظهرت بها نتائج وضع موجود.

إذن فالنظرية القومية القديمة أصبحت قاصرة عن تفسير استمرار التجزئة بعد زوال الانظمة المرتبطة بالاستعمار (بصورة عامة على الاقل) ووصول الحركة القومية إلى الحكم. وعلينا الآن أن نفتش عن مواضع الضعف في الوضع الجديد أي في وضع حركة الثورة العربية نفسها. ثمة مسألتان يمكننا الاشارة إليهما في هذا المجال. أولاً: ان الحركة الثورية التي استلمت السلطة في بعض الاقطار العربية، قد جابهت ما درجت على تسميته بالأوضاع الخاصة لتلك الاقطار أي الاوضاع الاقليمية والمشاكل المحلية بكل ما في ذلك من مصالح ورواسب وثقافة إقليمية وتفكك وطني وطباع مختلفة ومشاكل اقتصادية صعبة. وبدلا من أن يستطيع الحكم الثوري أن يهاجم هذه المشاكل بروح ثورية ويحطم قواها نجد أنه في كثير من الاحوال يخضع لضغطها وينوء تحت ثقلها فبدلا من أن يهاجمها أصبح ازاءها في موقف الدفاع (إلى حد ما طبعاً) إن عملية الصراع مع المشاكل الاقليمية قد أخرت مسيرة الوحدة. ومما زاد الوضع سوءاً هو التصور الخاطىء عند البعض بأن المشاكل الاقليمية يجب أن تحل أولاً وأن أية وحدة لا تصح إلا بعد حل المشاكل المحلية والرأي هذا معروف لا يحتاج إلى مزيد من الشرح.

إن الخلط بين اختيار الأسس الصحيحة للوحدة وبين حل المشاكل القطرية أولا قد أدى إلى تشويش فكري وإلى عرقلة السير في طريق الوحدة. والخطأ في هذه المسألة يكمن في أننا لم نستطع بصورة واضحة أن نفرق بين الوحدة كثورة بحد ذاتها وبين الوحدة كحصيلة نهائية. ان الوضع العربي الراهن بكل ما ينطوي عليه من اخطار تهدد كيان الأمة وسلامة الوطن يتطلب النظر إلى الوحدة على أنها ثورة بحد ذاتها. ويعني ذلك فيما يتعلق بالنقطة موضوع البحث أن المشاكل الاقليمية الطويلة الأمد لا يمكن أن تحل إلا في وضع الوحدة عندما تكون الوحدة إطاراً لتجديد الثورة. ان التنمية الاقتصادية وحل مشاكل الاقليات ومجابهة الاستعمار وخطر اسرائيل وتكوين قوة عسكرية حديثة تناسب المهمات الجديدة وتجديد مرافق الحياة للشعب والتأثير في الوضع الدولي كلها أمور أصبح من الثابت الأكيد الآن أننا لا نستطيع تحقيقها في وضع التجزئة.

ولكن المسألة الأكثر أهمية في تفسير استمرار وضع التجزئة هي أن الحركة الثورية العربية تعاني في داخلها من تناقضات ذاتية.

إن منابع هذه التناقضات عديدة ولكن في منابعها الرئيسية فكرة خاطئة نمت

وانتشرت بين صفوف الحركة الثورية العربية وهي في الغالب تأخذ طابعاً عقائدياً يوحي بأنها مسألة فكرية تستند إلى العلم. والفكرة هذه هي أن الاهداف القومية لا يمكن أن تتحقق إلا على يد حركة واحدة من الحركات الثورية. وتستند هذه الفكرة إلى أنواع متعددة من التحليلات من أهمها القول بأن الحركات الثورية المتعددة في الاقطار العربية تمثل أنواعاً متعددة ومختلفة من البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية لذلك فهي لا يمكن أن تتوحد في نظرتها، وبالتالي فإن فهمها للأهداف القومية لا بد أن يختلف. لذلك فالوحدة العربية لأجل أن تكون سليمة الأسس ومضمونة البقاء والنجاح لابد أن تتحقق عن طريق حركة واحدة. . . الخ[1].

إن دحض هذه الفكرة نظرياً ليس من الامور الصعبة فالحركات المتباينة المنشأ لا يوجد سبب منطقي يمنع اتحادها لمجرد كونها مختلفة في منشئها، وحتى الحركات المختلفة في منشئها الفكري لا يوجد منطقياً ما يمنع تطورها في طريق الالتقاء وبالتالي الاتحاد. والحركات الثورية العربية نفسها قد تطورت بأفكارها، وكيف لا تتطور أفكار تلك الحركات في طريق الالتقاء والاقطار التي نشأت فيها وحكمت أصبحت ذات مصير مشترك واحد ازاء العدو ناهيك عن كل اعتبار قومي آخر؟ ان حقائق الوضع العربي وحقائق هذه الحركات كلها تشير بوضوح إلى العكس من ذلك تماماً. حقاً أن الادبيات الجديدة عن الثورة تحتوي على مزالق فكرية كثيرة أصبحت الآن في عداد الاخطاء الشائعة ذات الادعاء العلمي.

القول بأن حركة واحدة من الحركات الثورية العربية وحدها قادرة على تحقيق الاهداف القومية خاطئة من الاساس وقد أدت جميع محاولات تطبيق هذه الفكرة إلى خلق تناقضات داخل الحركة الثورية أو ربما كان ذلك المصدر الاساسي للتناقضات التي جرّت أسوأ النتائج، ولسنا بحاجة إلى سرد الوقائع فهي معروفة. أما من أين أتت هذه الفكرة فهناك عوامل عديدة ساعدت على خلقها. هناك مثلاً العوامل الايديولوجية فالحركة الثورية وهي تعمل على صهر اعضائها وتمتين روح الانضباط واذكاء روح النضال والحماس فيهم تنزلق بوعي أو دون وعي إلى حقن أفكار ذاتية تنمي في المنتمي روح التميز عن الآخرين وتوحي بأن أفكاره هي الافكار الوحيدة

---

(١) ان الحركة العربية الواحدة كتنظيم وكفكرة قد ظهرت في عهد الرئيس الراحل جمال عبدالناصر وهي مظهر ملموس بهذا النمط من التفكير.

الصحيحة وأن طريقه هو الطريق الوحيد لتحقيق أهداف الأمة. انها روح الجندية العقائدية التي عرفتها جميع الحركات الثورية في التاريخ وجميع الاديان القائمة على أساس غرس الايمان التام بالنفس وإزالة كل عوامل التشكيك عن طريق غرس مثل هذه الافكار. إن متطلبات التنظيم تؤدي تلقائياً إلى هذه الافكار وتخلق جواً نفسياً ملائماً لتقبلها.

ثم هناك العوامل الذاتية والنفسية التي يدخل تحتها كل ما يسمى بالمنافسة والصراع على السلطة وصعوبة قبول الآخرين والانانية السياسية والجروح النفسية التي تخلفها اللعبة السياسية والمعارك مع الآخرين والاساءات الشخصية وسوء الفهم.. وما إلى ذلك مما أصبح مألوفاً في الحياة السياسية العربية. ويقف وراء هذه العوامل الذاتية والنفسية مجموع التخلف الاجتماعي أي تخلف شخصية الفرد العربي في وضعها الحاضر. إن أمراض الحياة السياسية في بلادنا لا يمكن أن تفسر إلا على أنها البخار المتصاعد من وضع التخلف. فالأنانية وضعف شخصية الفرد من الصفات البارزة في المجتمعات المتخلفة. إن العوامل الذاتية تكون أحد المنابع المهمة للتناقضات في الحركة الثورية العربية. ولكن القول بذلك لا يعني أن الاختلافات لا تأخذ شكل المسائل الفكرية أو أنها بعيدة كليا عن الافكار. ان الافكار والنظريات والتحليلات المختلفة موجودة ولكنها صادرة عن أحاسيس ذاتية في جذورها. هناك أولا الاحاسيس الذاتية ثم تأتي بعدها الاختلافات الفكرية كانعكاس لتلك الاحاسيس. أما طريقة تطور الوضع بالنسبة لتلك التناقضات فمعروف وهو طريق حلزوني يغذي بعضه بعضاً، الاحاسيس الذاتية تولد الافكار والافكار تولد التصرفات والتصرفات والافكار المتعادية تؤجج مزيداً من الاحاسيس وهكذا. وقد كانت مسألة الحكم المسألة الرئيسية التي تولدت عنها التناقضات.

كثيرة هي الكتابات عن العوامل الاقتصادية والسياسية في تطور الوضع العربي، ولكن مسألة أثر العوامل الذاتية والنفسية في السياسة العربية لم تدرس بعد، لا بل لم تجلب الانتباه اللازم. ومرد ذلك جزئياً على الاقل هو التعلق الجديد الدارج بالأمور الموضوعية وبالطريقة العلمية في البحث، الامور التي تولد الخشية والنفور من تقصي العوامل الذاتية والنفسية مع أنها عوامل موجودة وذلك ما يجعل البحث فيها في صميم النظرة العلمية. إن العقد النفسية والرواسب والاحاسيس البدائية الصادرة عن

النزعات الفردية الانانية المتحدرة في الفرد العربي من عصور البداوة وحب السلطة لا يمكن الاستهانة بدورها لا بل كان لها دور مهم في خلق التناقضات داخل الحركة القومية. صحيح كانت هناك نظرات متباينة لبعض الامور بفعل تباين البيئة والظروف التي نشأت فيها الحركات القومية ولكن تلك الاختلافات ليست من النوع المستعصي على التطوير والحل. لقد مر وقت ليس بالقصير على دخول الحركات القومية مجال الممارسة والتفاعل مع بعضها فلماذا لم تستطع تلك الحركات حل الاختلاف والوصول إلى التقاء راسخ؟ إن العالم الحديث يعرف حالات استطاع فيها البحث والتفاعل والدبلوماسية توحيد بلدان وقوى بينها تناقض عميق واختلافات جوهرية والتعاون الحاصل في أوروبا الغربية مثال واحد على ذلك.

في الحقيقة ان التجربة العلمية والمعاناة وقسوة النكبات قد كونت قوة دفع في اتجاه الالتقاء، ودللت حوادث التاريخ العربي الحديث على خطأ الافكار والاحاسيس التي تولدت عنها التناقضات. وليس أدل على ذلك من ظهور فكرة التقاء الثورات. ان التقاء الثورات العربية هو الحل العلمي الوحيد للوضع الذي تعانيه الثورة العربية. فالثورة العربية تتكون من أكثر من حركة واحدة وهي وان اختلفت بالمنشأ وحتى ببعض المناحي الفكرية ومواضع التأكيد، إلا أنها وهي تنفتح على الواقع العربي، والعالم العصري، وهي تتصدى لتطبيق أهدافها لا بد أن تكتشف أن الطريق الوحيد المفتوح أمامها هو طريق الالتقاء وتذويب الفوارق. لذلك فمسألة التقاء الثورات العربية يجب أن تعتبر مبدأ أساسياً من مبادىء الثورة العربية. ولكن الذي يدعو للقلق هو أن هذا المبدأ يبقى دوما معرضاً لهجوم العوامل الذاتية وارتدادها عليه من جديد في الاوقات التي يظهر فيها الخطر.

وعندما نصل إلى حافة نكبة تزداد قوة هذا المبدأ ويضعف مفعول العوامل الذاتية. ولكن حالما يبتعد الخطر قليلا تعود أمواج العوامل الذاتية بالارتداد من جديد وهكذا. إن هذه الظاهرة بحد ذاتها تظهر حقيقة التناقضات من جهة، وصحة مبدأ التقاء الثورات من جهة أخرى. المهم هو ترسيخ هذا المبدأ ونقله إلى حيز التطبيق الثابت وغسل العوامل الذاتية وطرد سمومها من الحياة السياسية العربية بصورة نهائية.

إذا كانت العوامل الذاتية من العوامل المهمة في خلق التناقضات داخل الحركات القومية العربية فماذا نستطيع أن نستنتج بخصوص مسألة الوحدة العربية؟ هناك أمور عديدة يمكن استنتاجها من ذلك. أولاً ان ظهور الدعوة للوحدة بين الاقطار المهيئة للوحدة على الاقل على أثر النكبة الحالية ليس من قبيل ردود الفعل العاطفية إزاء الوضع الجديد كما قد يتبادر للذهن بل ان السبب الحقيقي لظهور الدعوة الآن هو أن العوامل التي أخرت توحيد هذه الاقطار في أساسها لم تكن عوامل موضوعية بل عوامل ذاتية سرعان ما طمستها آثار النكبة. إن انحسار موج التناقضات داخل الحركات القومية العربية في هذه الاوقات وظهور خط التقاء الثورات ان هو إلا دليل علمي على ذاتية التناقضات، وإلا فلو كانت تلك التناقضات موضوعية (بمعنى أنها تمس النظم والامور الجوهرية في حياة القطر) لما انطمست في هذه الظروف. وهناك أدلة على تناقضات بين بعض نظم الحكم العربية لم تنطمس حتى في وقت النكبة، ولسنا الآن بصدد التعرض لذلك. ان ظهور دعوة التقاء الثورات والوحدة يعكس طبيعة تلك التناقضات الذاتية النفسية التي سرعان ما طمستها هزة الضمير وعواطف النكبة. إن النكبة الحالية ان دلت على شيء فتدل على خطأ مسيرتنا السابقة واستسلامنا للغرائز والانفعالات وللعوامل الشخصية والاحاسيس البدائية. إن مسألة الوحدة مسألة الحياة أو الموت بالنسبة للشعب العربي منذ ١٩٤٨ على الاقل ولكننا لم نستطع أن نسير في طريقها لأسباب موضوعية في البداية هي نظم الاستعمار، وذاتية فيما بعد. ودعوة الوحدة ان هي ظهرت الآن بصورة أقوى مما قبل فذلك يعود إلى أن العوامل التي أخرت تحقيقها في الاصل عوامل ذاتية.

فالوحدة ليست مشروعاً جديداً نواجه به النكبة وليست رد فعل للاوضاع المؤلمة الجديدة ولا أي شيء من ذلك. انها الاطار الذي لا يمكن من دونه أن تنمو القوة العربية وهي نقطة البداية الوحيدة المتوافرة لدى الشعب العربي ليبدأ نهضة حقيقية تحقق مطامحه وتحفظ له كيانه. وهي دون ريب الهدف الذي لا يرقى إليه أي هدف آخر مهما كان والقضية الجوهرية التي تتضاءل أمامها جميع القضايا الأخرى مهما كانت.

إن مسألة الوحدة كنقطة بداية وحيدة للقوة ولمواجهة الخطر الاكيد تحتاج لشيء من الايضاح. إن أهمية الوحدة للشعب العربي اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً مبحوثة

ومعروفة وبديهية ولا نقصد تكرار أي شيء من ذلك الآن. ثمة مسألة واحدة يجدر التنويه بها. إن مسألة النكبة مهما قلنا في تحليل أسبابها ومهما تعددت التعليلات إلا أنها في النهاية ترجع لعامل جوهري واحد هو الضعف البشري، هو نوعية الفرد العربي في الوقت الحاضر (ليس المقصود بذلك طبعاً مسألة الجوهر بل الوضع الواقعي للفرد العربي الآن). ان جميع العوامل المادية كالسلاح والفنون الحربية والاخطاء وجميع العوامل الخارجية كالاستعمار والوضع الدولي.. الخ، ليست إلا عوامل رديفة للعامل الرئيسي وهو العامل البشري المتعلق بنا نحن الشعب العربي بوضعه الحاضر. إن الفرد العربي الحاضر (عموماً) ضعيف الشخصية يحمل في قرارة نفسه رواسب قرون من التخلف ويحمل معه كل آثار الانكسار والتأخر والهزيمة والضعف التي تراكمت خلال القرون، تلك الرواسب والعوامل التي لا يمكن التغلب عليها إلا بهزة نفسية عنيفة في داخل الانسان كتلك التي أحدثتها الثورات الكبرى والتي أحدثها الاسلام وقت ظهوره. إن تلك الهزة لم تحدث بعد وهي لا يمكن أن تحدث إلا إذا استند الفرد إلى أمل موضوعي مقنع وليس هذا الامل غير الوحدة العربية، غير الشعور باليقظة والنهضة والانتماء لأمة منيعة كبيرة قوية. إنه قيام الدولة العربية الكبرى الجديدة فقط ما يخلق تلك الهزة العنيفة ويفتح ينابيع التفاؤل والثقة بالنفس والشعور بالأهمية والرسالة. انها الوحدة التي تفتح المجال الواسع أمام الفرد للنشاط حيث يجد الفرد مسرحاً واسعاً للعمل والانتاج والابداع والمبادرة في جميع المستويات. إن أحاسيس الانكسار والفشل والهزيمة والعجز الموجودة في الفرد العربي (عموماً وبدرجات متباينة) لا يمكن طمسها إلا بمشاعر معاكسة يولدها وضع يبعث الامل من جديد ويوفر المجال الرحب لنشاط الانسان. إن هذه المسألة التي قد تبدو للبعض وكأنها تحليل غامض ليست في الواقع كذلك بل هي في صميم التحليل العلمي. إن مشاعر الانسان واستعداده للعمل ومدى تفاؤله واندفاعه لا بد أن يستند إلى أساس موضوعي يبرر التفاؤل ويغرس الثقة. والوضع المجزأ الضعيف المتناحر للوطن العربي لا يمكن أن يوفر ذلك مهما كانت درجة التقدم التي يبلغها القطر. إن التغير النفسي لشخصية الفرد العربي يحتاج لأساس موضوعي، والاساس الموضوعي هو الوحدة العربية.

بقي أن نتناول خطأ فكرياً أخذ ينتشر في الآونة الأخيرة حول كيفية الوصول إلى الوحدة العربية. هناك من يقول بأن مسألة الوحدة تحكمها العوامل الموضوعية

قد نضجت وتطورت. إن هذا الرأي لا يطرح بشكل نظرية واحدة بل بأشكال متعددة، كما ليس من السهل تحديد الاستنتاجات التي يصل اليها بصورة دقيقة، ولكن يمكن تخمين تلك الاستنتاجات ومناقشتها. فقد يعني هذا الرأي أن الوحدة يجب ألا تتحقق إلا إذا وصلت الاقطار المعنية لأوضاع اقتصادية واجتماعية وسياسية متماثلة لأن أي تفاوت بتطور تلك الاوضاع سيخلق تناقضات في داخل الدولة الجديدة يؤدي بالتالي إلى فشل الوحدة. إن هذا الرأي إضافة إلى كونه قائماً على تحليل مجرد لا يدعمه أي مثل في التاريخ ولو كان واحداً فهو يغفل مسألة أساسية هي أن الوحدة العربية التي نحن بصددها الآن ليست الوحدة الشاملة بل الوحدة بين بعض الاقطار كالتي زالت فيها النظم القديمة. إن الوحدة التي نحن بصددها مستندة إلى ثورة موجودة ومستمرة لذلك فالوحدة سوف لن تكون إلا مرحلة جديدة في الثورة، إلا تجديداً للثورة، أي أنها ثورة جديدة بحد ذاتها. والثورة الجديدة هذه لابد أن تتصدى أولاً وقبل كل شيء لتطوير الاوضاع الداخلية بصورة جذرية شطر التوحيد. كما أن تفاوت الاوضاع في الاقطار المتحدة ليس من الضروري أن يخلق التناقضات عندما يكون معرضاً لرياح التغيير الثورية. هذا إذا فرضنا أن تلك الفروق على درجة من التباين كالتي يقال عنها وهو أمر ينطوي على كثير من المبالغة.

شيء آخر ربما يستنتج من هذا الرأي الا وهو أن قضية الوحدة رهن بتطور تحكمه عوامل حتمية خارجة عن الارادة والرغبة. إن مثل هذا الاستنتاج - إن صح - توحي به الادبيات الايديولوجية التي تؤكد على القوانين العلمية في التطور الاجتماعي وأهمية العوامل الموضوعية، وهو فهم خاطىء لمسألة العلم في التطور الاجتماعي وفهم خاطىء لتلك الأدبيات.. ان مسألة الحتمية في البحث الايديولوجي هي التي ربما توحي - بصورة خاطئة - بمثل هذا الاستنتاج الخاطىء.

ان مسألة الوحدة العربية مسألة إرادية تعتمد على نضال شعبنا ولا يمكن أن تتحقق بصورة آلية تلقائية، كما أنها ليست مسألة حتمية فهي يمكن أن تتحقق كما أنها يمكن ألا تتحقق وكل ذلك يعتمد على نضالنا من أجلها. وعلينا نحن الشعب العربي أن ننتبه إلى خطأ وخطر أي اعتقاد أو ميل للاعتقاد بأن مسألة الوحدة مسألة حتمية أو أنها مسألة ليست بيدنا أو خارجة عن ارادتنا.

وثمة رأي مشتق من هذا الاستنتاج وهو أن النضال من أجل الاشتراكية يوصل بحد ذاته إلى الوحدة على اعتبار أن بناء الاشتراكية في الاقطار العربية المجزأة يخلق

ظروفاً موضوعية متماثلة تؤدي إلى الوحدة. إن هذا الرأي خطأ أيضاً، فالنضال من أجل الاشتراكية لا يشترط أن يؤدي بحد ذاته إلى الوحدة. فالوحدة تحتاج إلى نضال إرادي قائم بذاته هو النضال ضد التناقضات داخل الحركة القومية العربية التي حالت دون تحقيق الدولة العربية المتحدة. إن النضال الاشتراكي يخلق ظروفاً مساعدة وجواً ملائماً للوحدة ولكن هذا العامل الايجابي قد يكون أضعف من العوامل السلبية الناتجة عن تناقضات الحركة القومية العربية كما أن وجود أقطار عربية تنهج نهجا اشتراكياً ومتصارعة في الوقت نفسه ممكن وواقع في البلاد العربية وفي العالم الخارجي. إذن لنكن حذرين من هذه المزالق الفكرية ومن خطر هذه الاوهام. لننتبه إلى أننا يجب ألا نلجأ لتعليل أنفسنا أو ستر فشلنا في النضال الوحدوي بتحقيق خطوات في طريق الاشتراكية. حقاً ان النضال الاشتراكي لا يمكن أن يكون بديلا للنضال الوحدوي.

لقد ساعدت الآثار السلبية التي خلفها فشل وحدة ١٩٥٨ بين سورية ومصر على تكوين مثل هذه الافكار. ان تلك التجربة قد أوحت للبعض بأن فشل تلك الوحدة كان محتماً لأنه كان مسوقاً بفعل عوامل موضوعية لا مناص منها، وذلك خطأ فادح. إن الأخطاء التي رافقت تلك الوحدة لم تكن لتؤدي حتما إلى الانفصال. لقد كان الانفصال عملاً إرادياً تآمرياً ليس فيه من الحتمية التاريخية أي شيء وكان من الممكن ألا يحدث أبداً.

ومن المسائل ذات الاهمية في قضية تحقيق الوحدة هي مسألة العقبات. إذا كان الوضوح الذهني يمكن أن يقوم بأي دور فيجب أن يكون في توضيح هذه المسألة. كثير من المؤمنين بالوحدة يقعون في شباك الالتباس بين أهمية الوحدة وبين أهمية العقبات التي تعترضها.

فالقول بأن الوحدة ضرورية ولكن ماذا نعمل لتلك العقبات، إن دل على شيء فيدل على عدم وضوح القضية وعدم اتخاذ قرار حاسم. إن كل تصور بأن الوحدة (أو أي هدف تقدمي آخر) يمكن أن يتم دون تضحية ان هو إلا تصور خاطىء يدل في أحسن الاحوال على بدائية الفكر السياسي في بلادنا. ان المهمات الكبرى في التاريخ لا تتم دون تضحية بأشياء ربما عزيزة ومهمة.

وقد لا يكون من قبيل المبالغة أن نقول ان كل شيء في الحياة لا يمكن أن يتم دون مقابل أو ثمن، فإذا كان التقدم يعني النضال ضد الظروف فذلك يعني بالضرورة وجود ثمن مهما كان نوعه. اننا يجب أن ننتهي من مسألة تصنيف أهمية الاهداف

القومية وفرز الامور الاساسية من الامور الفرعية والتفريق بين الجوهري والمهم. فالوحدة العربية ليست كأي هدف آخر وليست كأي قضية أخرى. إذن كيف يجوز أن ترد لأذهاننا مسألة العقبات والتضحيات؟ إذا كنا حقاً قد اقتنعنا بأن الوحدة هي الهدف الاول فلا يبقى علينا إلا المسير إلى الامام في طريق تحقيق هذا الهدف. علينا أن نزيل جميع العقبات وأن نقبل بكل التضحيات وأقول بكل أنواعها مهما كانت ومهما سمت وعزت. بمثل هذا النوع فقط من التحديد والتوضيح نستطيع أن نتقدم. أما التسليم بأن الوحدة هي الهدف الاساسي والتردد في تقديم التضحيات في سبيلها والتوقف أمام العقبات فهو في أحسن الاحوال نتيجة لعدم الوضوح وللعقل اللاعلمي الذي يصمنا به العالم المتقدم. ان التردد في التضحية والارتداد أمام العقبات ان هو في دوافعه العميقة وحقيقته النهائية إلا الاستسلام الى تأخرنا إلى رواسب التخلف ومشاعر الانكسار المتجمعة في أعماق نفوسنا وإلى العوامل الذاتية التي تسيطر على حياتنا السياسية وعلينا أن نعترف بذلك ونواجهه بشجاعة على الأقل.

كل ذلك لا يعني بالطبع عدم أهمية التجربة الماضية أو عدم الاهتمام بتحليل الواقع العربي وأخذه بعين الاعتبار ونحن نبني الوحدة الجديدة. ولكن لا نستطيع أن نقول ان فشلنا في تحقيق الوحدة بين بعض الاقطار العربية ووصولنا إلى الوضع المتمزق الذي سبق النكبة ببضعة أشهر كان ضرورياً لدراسة التجربة وتحليل الواقع أو أي شيء من هذا القبيل. ان استقراء التجربة شيء وظهور التناقضات داخل حركة الثورة العربية ونتائجها على الوحدة شيء آخر تماماً. إن مسألة الاستفادة من التجربة السابقة وتحليل الواقع العربي مسألة واسعة يطول شرحها ولسنا بصددها الآن. هناك شيء واحد يمكننا أن نشير إليه في هذا المجال هو أنه يبدو أن الوحدة التي نحن بصددها اليوم لا يستحسن أن تأخذ شكلاً غير شكل الاتحاد الفدرالي القائم على أساس حكومة فدرالية واحدة تتولى بصورة تامة شؤون الدفاع والتنمية والسياسة الخارجية وحكومات محلية تتولى ما عدا ذلك من الشؤون. إن مبررات هذا الشكل كثيرة فهو الشكل الذي يلائم الدول الكبرى الشاسعة الرقعة المتباينة في الاوضاع المحلية من جهة، ويتيح الفرصة للتطور الذاتي للاوضاع المحلية شطر التوحيد دون ثمن باهظ وتجنب تحريك الرواسب والاوضاع المحلية ضد الدولة الجديدة من جهة أخرى.

إن مسألة الوحدة تمر الآن بظرف مناسب هو ظرف النكبة. ونقول بأنه ظرف

مناسب ولا نعني اطلاقاً ان دعوة الوحدة هي رد فعل كما سبق القول ولكن المقصود هو أن ظرف النكبة من شأنه أن يضعف مفعول العوامل الذاتية التي كانت السبب الرئيسي في تأخر تحقيقها فعلينا أن نستغل هذا الظرف لهز وجدان شعبنا، إذ ليس هناك دليل أكبر وأوضح من فداحة وضع التجزئة إزاء عدو بالقوة التي بانت في المعركة. إن المثقفين العرب لا يستطيعون القول بأنهم قد أدوا واجبهم في كل الظروف وهم مدعوون اليوم إلى تعبئة الرأي العام وراء هذه القضية المصيرية. إن مسألة العمل لهذه الدعوة الآن لا يمكن أن يكون بمثابة عمل سياسي (بالمعنى التقليدي للعمل السياسي) بل هي عمل قومي عام وعلينا جميعاً أن نتحرر من أوهام الخوف من الاندماج بالسياسة فما نقوم به من أجل الوحدة ليس سياسة اطلاقاً. إن هذه الدعوة ليست دعوة لنظرية معينة أو لرأي معين في الثورة العربية بل هي دعوة انقاذ بكل ما في الكلمة من معنى. إن جميع المثقفين العرب مدعوون لصب جهودهم في هذا المجرى لتحريك الرأي العام العربي ودفعه نحو هذا الهدف وكل جهد مهما صغر مهم وكل عمل مهما صغر فهو من صميم الواجب الوطني الآن. جميع المثقفين العرب وقادة الرأي العام والعاملين في الشؤون العامة من جميع الآراء والاتجاهات مدعوون للمساهمة في هذا المشروع القومي، مشروع التعبئة من اجل الوحدة.

***

الوَحدَة والتَجْزئَة وَالحَرْب(*)

الدكتور سعدون حمادي

في حرب السادس من تشرين الأول/اكتوبر ظهرت علائم وامكانيات الوحدة كما ظهرت آثار ومساوىء التجزئة. فالحرب وضع خاص يعيشه الناس يختلف تماماً عن وضعهم وقت اللاحرب. فالحرب وقت من أكثر الاوقات جدية لأنها مسألة تتعلق بالبقاء. إن البقاء في الحياة والدفاع عن النفس هما أعلى القيم وأقوى ميل موجود في الانسان وباقي الكائنات الحية ويشكل في هذه الكائنات المحور الرئيس للعقل والغريزة. لذلك فعندما يوضع الانسان في موضع يكون فيه بقاؤه مهدداً، فإنه يرتفع إلى أعلى مستويات الجدية والشعور بالمسؤولية. فالشعور بالجدية والمسؤولية يطغى على

(*) نشر هذا المقال في: دراسات عربية، السنة ١٠، العدد ٤ (شباط/فبراير ١٩٧٤)، ص ٢ ـ ١١.

كل الاحاسيس المؤقتة والمشاعر اليومية المتضاربة، ويتحرر العقل والضمير والعواطف من الامور الآنية ومشاعر العبث وتتضح أمامه الاشياء وينجلي ما كان غامضاً منها قبل ذلك، وتزول الانفعالات المتناقضة التي تحجب الرؤية الواضحة والتقويم السليم للأمور. وفي حالة الحرب، التي تقف الأمة فيها موقف الدفاع عن النفس والمقدسات وتحرير الوطن ورد اعتداء الاجنبي وعبودية الاحتلال، تتعرض الامة إلى عملية غسل للنفس من أدران الانانية وصغائر الحياة اليومية المتفرعة من الذات والمتعلقة بمشاغل الفرد وأحاسيسه وانفعالاته ومواقفه، فترتفع النفس لمستوى اخلاقي عالٍ ويصفو الذهن وتتضح الامور التي كانت غامضة في السابق وتنقشع اللامسؤولية فتبدو الحياة بكامل جديتها حيث المطروح للخيار هو الحياة أو الموت. في مثل هذا الجو يتعرض الفرد لعملية تدريب نفسي وصقل ذهني ويحصل عنده ذلك التغيير الجذري في الشخصية الذي يرفع الحياة من مستوى إلى مستوى أعلى، ومن وضع إلى وضع متقدم عليه. وكلما طالت الحرب وكثرت التضحية وازدادت المعاناة والالم والتحديات، اشتدت عملية الصقل والغسيل وتغيير الشخصية، ومعها تشتد عملية الانتقاء والتصفية. فالنفوس الضعيفة التي لا تقوى على المجابهة تضمحل وتسقط على الدرب، أما النفوس القوية فتنصقل وتقوى ويحصل فيها ذلك التغيير الجذري ويتحول الافراد من أفراد عاديين إلى نوع آخر من الافراد، فتظهر المبادرات وتزداد البطولة وتظهر القيادات. إن آلام الحرب الوطنية وتضحياتها وتحدياتها ووضعها الجدي ومجابهة الموت أمور تنصقل بها نفوس الامم ويقوى عودها ويتغير فيها الفرد نوعياً، وليس أدل على ذلك من وضع الشعوب التي حصلت على استقلالها عن طريق الثورات والحروب الطويلة مقارنة بالشعوب التي حصلت على استقلالها دون ذلك كالظروف الدولية. لا شك أن الحرب مسألة تمس أعماق الانسان طالما طمح المفكرون إلى تحليلها وفهمها كما فعل المتنبي وهمنغواي.

في حرب تشرين الاول/اكتوبر حصل ما يمس الذهن العربي والنفس العربية. ولعل أبرز وأهم ما نبع من الاعماق وظهر للعيان هو الشعور القومي، الشعور بوحدة الأمة العربية ووحدة مصيرها ووحدة عدوها وحاجة الدفاع عن النفس والكيان والوجود. فقد تأججت العاطفة القومية ونبعت مشاعر الترابط ووحدة المصير ودب الحماس في أوساط الشعب في أطراف الوطن العربي والتهبت المشاعر وبدأت علائم المبادرات الشعبية لدعم المجهود الحربي. كما أقدمت الاقطار العربية على أعمال لا

تفسير لها غير الحماس القومي والشعور بالمسؤولية، فليبيا قد وضعت كل امكانياتها في الجبهة الغربية، ودخلت الجزائر بما لديها، واشتركت المغرب في مساهمة عسكرية تثير الانتباه وقاتل ابناؤها في الشمال وجابهوا الموت لقضية اعتقد البعض لفترة طويلة أنها بعيدة عن مشاعرهم، ونقل العراق قواته إلى الجبهة في عملية وصول غير اعتيادية فقاتلت قواته ببسالة وحققت نتائج ايجابية. كما ساهم لبنان بأكثر من المتوقع، وساهمت الكويت عسكرياً ومادياً، وكذلك ساهمت أقطار عربية أخرى مادياً وبصورة أكثر جدية، وأقبلت الأقطار العربية المنتجة للنفط على استخدامه سلاحاً في المعركة بتقبل أكبر وباستعداد للتضحية أقوى من السابق. إن كل ذلك الذي حصل لم يكن ليصدر لولا الشعور القومي ولولا العاطفة القومية التي حركته. وقد عكس الاعلام العربي وضعا من التضامن والشعور المشترك ووحدة المصير لم يكن موجوداً قبل ذلك ولم يكن متوقعاً بالقياس لاوضاع الانقسامات السابقة. خلال أيام الحرب ظهرت بوادر الوحدة الاقتصادية في الوطن العربي وعلائم التكامل في الموارد والامكانيات وارتفع الشعور بضرورة ذلك وازداد الاستعداد للتضحية عند الجزء في سبيل الكل. وكلما مرّ يوم تصاعد ذلك الشعور وارتقى إلى مستويات أعلى جديدة حتى قفزت إلى الاذهان ضرورة القيام بخطوات توحيد لبعض الاقطار العربية وهي في خضم الحرب وسافر من أجل ذلك مسؤولون في بعض الاقطار العربية.

والوجه الآخر لتصاعد الشعور القومي أثناء الحرب هو ارتفاع الروح المعنوية والثقة بالنفس وتنامي الشعور بالقدرة على مجابهة العدو وذوبان جليد الهزيمة وانحلال عقد العجز العسكري الناتجة عن حرب الخامس من حزيران/يونيو وما تبعها من الاعتداءات العسكرية الاسرائيلية. لقد تبدلت الايام وتغير الفرد العربي نفسياً وهو يسمع انباء اقتحام القناة والهجوم في الجولان وخسائر الطيران الاسرائيلي وتقارير الصحافة الاجنبية ومراسيلها وردود الفعل الغربية التي جاءت هذه المرة مختلفة عنها في المرات الماضية. إن قصص الحماس وضروب التضحية والبسالة التي ظهرت عند الجندي العربي أصبحت في التداول كما جلب الانتباه حماس الشعب وارتفاع معنوياته واستهانته بالحرب والموت وتماسك صفوفه وهدوء أعصابه في المناطق المتاخمة لجبهات القتال المعرضة لطيران العدو في سورية ومصر. لقد دبّت روح الحرب واشتعل الحماس وظهرت مبادرات من الشعب ومنظماته في جميع المستويات وفي كل الارض العربية، وانتقل ذلك إلى العرب الساكنين في خارج الوطن حيث ترددت أصداء الحماس

والشعور القومي والثقة بالنفس والعزم على الانتصار متمثلا في ضروب شتى من التعبير.

إن شعوراً نفسياً كهذا ما كان ليظهر لولا عمق الشعور القومي وتمكن العاطفة القومية من النفوس. فالحقد على العدو والانجذاب العاطفي إلى المعركة واللهفة الشديدة للنصر دليل على الشعور القومي الموحد الذي تصاعد من الاعماق بمجرد أن اندلعت الحرب مغطياً أوضاع التجزئة والانكسار النفسي ومشاعر الضعف والانعزال التي طغت بعد هزيمة الخامس من حزيران/يونيو. إن وضع التجزئة وما ينتج عنه من مشاعر والآثار النفسية للانقسام والبعد عن التوحيد التي سادت إلى حد بعيد قبل المعركة وفي أعقاب هزيمة حزيران/يونيو لا يمكن أن تكون عميقة الجذور، فهي أوضاع متأثرة بعوامل نفسية طارئة. وعندما انتقلت الأمة إلى وضع المسؤولية والمواجهة الجدية للأمور، زالت تلك الاوضاع واندفع الشعور القومي العميق من الاعماق إلى السطح. وهكذا بحلول العوامل الموضوعية محل العوامل النفسية الذاتية تغيرت الاوضاع من وضع الانقسام إلى وضع موحد العاطفة ومشجع على التوحيد.

كل ذلك من حيث المشاعر والاتجاه. ولكن هل خاضت الأمة العربية تلك الحرب بصورة موحدة؟ الجواب عن ذلك بالطبع سلبي. فمن الناحية الفعلية لم تكن الأمة موحدة مادياً بل كانت مجزأة كما نعرفها: مكونة من عديد من الدول. فهل يستطيع أحد أن يتصور ماذا كانت ستكون النتائج لو أننا خضنا تلك الحرب موحدين بدولة واحدة؟ ماذا كان سيحدث لو أن دولة واحدة تضم كل الوطن العربي أو على الاقل الجزء الأعظم منه قد دخلت الحرب مع اسرائيل بدلا مما حدث؟ أن الفرق بين الحالتين ليس من الصعب تصوره، فهو في الحقيقة من نوع البديهيات الاساسية التي لا يصعب على الانسان الاعتيادي فهمها، إذ لا تحتاج إلى أكثر من البديهية لادراكها. ماذا كان سيحدث عسكرياً لو أن الأمة العربية دخلت الحرب موحدة؟ الفرق بين الحالتين هو ذلك الفرق بين امكانيات جيوش متعددة منفصلة عن بعضها وناشئة على هذا الاساس وبين قوات موحدة نشأت موحدة تنصب فيها جميع امكانيات الجيوش المتعددة. هو الفرق بين جيوش متعددة، ذات أفكار وتصورات واجتهادات متعددة، وبين جيش ذي قيادة مركزية واحدة، هو كل ذلك وهو الفرق بين أن يكون الهجوم

يوم السادس من تشرين الأول/اكتوبر مقصوراً على قوات سورية ومصر وبين أن يكون هجوماً من كل القوات العسكرية العربية موحدة، وهو الفرق بين ادامة للحرب على أساس وجود كل القوى العسكرية العربية في خدمة المعركة وبين امدادات ومساعدات في ظل وضع التجزئة كما كانت عليه الحال في تلك الحرب. أنه كل ذلك وسلسلة طويلة من الفروق في الناحية العسكرية بين الوضعين كانت على وجه التأكيد ستعمل الفرق بين النصر الحاسم على العدو وبين النتيجة التي حصلت.

إن أمة موحدة في دولة واحدة تندمج بداخلها كل امكانيات الاقطار المالية والاقتصادية وتتكامل وتتوحد بداخلها منشآت انتاج وتوزيع الطاقة وطرق المواصلات والصناعة الحربية والتموين والتدريب والتعبئة المادية والبشرية والاعلام والمخابرات تستطيع أن تخوض الحرب بصورة مختلفة تماماً عن الوضع الذي كنا فيه في الحرب الأخيرة حيث ظهرت آثار التجزئة بعد أيام قلائل من الحرب في جميع المجالات بشكل نقص ومواضع اختناق في عديد من المجالات الحيوية للحرب. إن البلاد العربية كدولة واحدة تحتل مكاناً دولياً وسياسياً مختلفاً تماماً عن المكان الذي تحتله الاقطار العربية وهي مجزأة. إن قوى هذه الأمة المالية والنفطية وتأثيرها في العالم الخارجي وعلاقات هذه الأمة السياسية بالدول الأخرى وقوى الضغط التي تتمتع بها في مختلف المجالات من الممكن أن تلعب دوراً مهماً في كسب الرأي العام الدولي والتأثير فيه، ويشكل ذلك وضعاً يفوق بكثير ما تستطيع الاقطار العربية مجزأة أن تحققه في هذا المجال. إن مجرد انتقال الامة العربية من وضع الدفاع المهين إلى وضع الهجوم عندما بدأت الحرب الأخيرة قد أحدث تغييراً ملموساً في ارتفاع معنويات شعبنا وإزالة العقد النفسية، كما حرك احتراماً واضحاً من قبل الرأي العام في العالم وتغيرت نظرته السابقة. إن مجرد بداية في استخدام سلاح النفط في المعركة قد أثر في وضع الدول الأخرى وفي موقفها من قضايا الأمة العربية. فكيف كان سيكون الوضع لو أن الأمة العربية قد دخلت تلك الحرب موحدة مستخدمة كل ما لديها من قوى وامكانيات عسكرية ومادية واقتصادية ووسائل ضغط خارجي؟ ان الفرق بين الحالتين كبير وبديهي لا يحتاج إلى مزيد من التفصيل والتوضيح. إن تضامناً عسكرياً محدداً في الجبهة الشمالية بين الجيش العراقي والجيش السوري قد حقق نتائج ايجابية مهمة،

فكيف سيكون الوضع لو أن قوات الاقطار العربية كانت موحدة قبل المعركة ودخلتها بقيادة واحدة؟

إن نقائص التجزئة ومساوئها كانت دوما واضحة، وكانت دوما معروفة يعترف بها الجميع، ولكن ذلك شيء وظهور أثرها الملموس في وقت الحرب شيء آخر يختلف باختلاف الاوضاع من وضع اللاحرب بعقده النفسية وعبثه وتأثره بالأمور الذاتية والمشاعر المتضاربة إلى وضع الحرب بكل ما فيها من جدية حيث يقف الانسان في وضع المجابهة مع الفناء. إن وضع الحرب وتحدياته المصيرية يخلق الوضوح والاقتراب من حقائق الامور إذ يتناسب ذلك طردياً مع درجة مواجهة الموت. عندها لا مجال للتغاضي عن الحقائق ولا مكان للاسترخاء والاهمال واللامسؤولية، فكل شيء من هذا القبيل يؤدي إلى نتائج خطيرة ولا يمكن أن يمر دون دفع الثمن. في مثل هذه الاوضاع التي بدأت تتكون في الوطن العربي أثناء الحرب بدرجات متفاوتة تفاوت القرب والبعد عن المعركة، ارتقت قضية الوحدة من وضع التأجيل الضمني إلى وضع الحاجة الملحة والقدر الذي لا مفر منه. إن هذا الوضوح وظهور جدية قضية الوحدة لم يكن إلا في بداياته ولم يظهر منه غير علائمه الاولى لأن الحرب لم تتسع ولم تستمر وبالتالي إن عملية مجابهة الموت والفناء لم تتسع ولم تستمر. إن الأمة لم تتح لها فرصة كافية لتنتقل إلى وضع الجد لتتعرف عملياً على فداحة أوضاع التجزئة ولتقرر حاجاتها الملحة إلى الوحدة. وليس غير التضحية والالم والمعاناة ومجابهة الموت الذي تأتي به حرب تحرير الوطن ما يحقق ذلك. لقد بدأت عملية الوضوح والانتقال إلى الجد بالظهور حالما اندلعت الحرب. فماذا كان من الممكن أن يحدث لو أن الحرب قد اتسعت واستمرت؟ انني من المعتقدين بأن الأمة العربية كانت ستتحد أو تتحد أجزاء مهمة منها على الاقل. إن حاجات الحرب وتحدياتها وضرورات الدفاع عن البقاء كانت ستدفع الأمة بالتدريج نحو التوحيد والاندماج. أولاً كان سيبدأ ذلك في مجال القوات العسكرية والموارد المادية وطرق المواصلات وجميع الوسائل البشرية والمادية لإدامة الحرب، ولتحققت من جراء ذلك درجة عالية من التعاون والتكامل. إن استمرار الحرب كان سيؤدي إلى زيادة التضحيات وإلى حصول العدو على إمدادات أكبر ودعم دولي أوسع من جهة، وإلى تصاعد في ضراوة القتال وروح التضحية من جهة أخرى. وبإكتشاف أهمية التعاون والتكامل في الامكانيات والجهود في ميدان القتال واتساع ذلك إلى جوانب الاقتصاد والحياة العامة كافة، وبزوال

شوائب الشكوك وعدم الثقة والارتفاع فوق الامور الثانوية، وبانحلال عقدة الانفصال وباندماج القوات المسلحة وبتصاعد حماس الجماهير، بحصول كل ذلك لا بد أن تكتشف الاقطار المجزأة التي تخوض الحرب أن الوحدة السياسية هي العمل الطبيعي لمجابهة الموقف وأنها التجسيد النهائي لواقع حاصل موجود، ولرأت تلك الاقطار أن التجزئة وضع غير طبيعي لا يقوم على اختلافات موضوعية بل على عوامل ذاتية نفسية سرعان ما ذابت في حرارة الحرب وتلاشت في الاندماج الفعلي بوجه العدو، وأصبحت غير مقبولة في الوضع الجدي الذي خلقته الحرب.

إن طول أمد الحرب من شأنه أن يوسع رقعتها، فلا تعود مقصورة على سيناء والجولان. كما أن ميدان التعبئة والاعداد لها ومدها بما تحتاج إليه لا يمكن إلا أن يتسع لأبعد من سورية ومصر، فيصبح العراق وليبيا والاردن والكويت والسودان والجزائر مجالا فعلياً لذلك. إن الحرب نشاط في منتهى الجدية وتحتاج إلى فعالية وكفاءة وتكامل وتعاون لا يمكن أن تتحقق إلا إذا كانت البلاد التي يجري فيها موحدة أو على درجة عالية جداً من التنسيق ودمج الموارد والامكانيات. إن عملية الدمج والتكامل والتعاون كانت ستؤدي دون شك إلى زوال المخاوف من الوحدة وإلى ذوبان عقدة الانفصال التي تقف وراء تلك المخاوف النفسية.

ولكن أثر الحرب الطويلة الامد في تحقيق توحيد البلاد العربية لا يقتصر على هذه الخطوات، بل ان أثره سيشمل البلاد العربية برمتها حتى ولو لم تتحقق أثناء الحرب الوحدة السياسية الشاملة. إن الاقطار العربية الأخرى كانت ستدخل مرحلة جديدة في مجال التضامن والتعاون فيما بينها في جميع المجالات: العسكرية والسياسية والمالية والاقتصادية، ولكانت هي الأخرى قد تعرضت لعملية غسيل للحساسيات الانانية ولازالة العقد والمخاوف، ولاتضحت لها بصورة عملية. إن مسألة اختلاف أنظمة الحكم مسألة ثانوية بالنسبة إلى مسألة المصير المشترك ومجابهة العدو المشترك، ولتبين لها بصورة عملية أن مخاوف استحواذ وسيطرة قطر على قطر ومطامع قطر بقطر ليست إلا أوهاماً ترشحت من أوضاع الهبوط وساعد الاجنبي على تغذيتها. إن عملية تذويب الحواجز النفسية بين البلاد العربية هي بحد ذاتها خطوة مهمة في طريق الوحدة. فالتضامن العربي في وضع جدي حاسم كالحرب من شأنه أن ينقل الشعب وحكوماته من وضع إلى وضع مختلف تماماً فيما يتعلق بقضية الوحدة. إن أقطاراً عربية

كانت في السابق بعيدة عن قضية القومية العربية كالمغرب كانت الحرب ستؤدي عن طريق المشاركة إلى تفجير عواطفها القومية وشد روابطها بالأمة. إن روابط العرب القاطنين خارج الوطن كانت ستتجدد وتقوى بعد أن أخذت تضعف بمرور الوقت. وبعبارة أخرى ان الأقطار العربية الأخرى، حتى وإن لم تدخل في خطوات وحدوية سياسية، فإنها من خلال المعركة من الممكن أن تشهد تغييراً جذرياً في وضعها النفسي ومشاعرها القومية وذلك بنشوء حالة من التعاون والتضامن والانفتاح واكتشاف حقيقة الرابطة القومية تحل مكان التفكك والانشغال الاقليمي والتأثر بالعوامل الذاتية وعقدة الانفصال وكل ما يمت إلى وضع التجزئة الذي سبق الحرب. إن كل ذلك دون شك يشكل تقدماً مهماً في مجال تقوية الشعور القومي وتوحيد المشاعر والرأي والموقف في صفوف الشعب العربي، وهو أمر غاية في الاهمية إذ أنه الاساس الذي تقوم عليه الوحدة السياسية.

إن خطوات التوحيد السياسية التي كان من الممكن أن تتم بين عدد من الاقطار العربية لو طالت الحرب ووضع التعاون والتكامل الفعلي بين الاقطار العربية عموما وانفجار روح التضامن والشعور القومي فيما بينها كانت ستؤدي بدورها إلى استثارة الفكر العربي وأوساطه الثقافية، وبالتالي تؤدي إلى ظهور تيار ثقافي وحدوي جديد وأدبيات واسعة في هذا الاتجاه، ولانطوت في النسيان والاهمال أدبيات فترة الهبوط والانفصال والتجزئة. إن هذا الوضع الجديد على الصعيد الثقافي من شأنه هو الآخر أن يضيف إلى تيار الوحدة قوة جديدة باستثارة الحماس القومي وايقاظ الضمير وتوضيح أهمية الوحدة وعزل الأوهام التي تكونت عنها. والنشاط الثقافي هذا عندما يقوم بمثل هذه المهمة ضمن ظروف تحققت فيها عملياً خطوات وحدوية وترسخت دعائم التضامن العربي وارتفعت الروح المعنوية وانقشعت غيوم العوامل الذاتية تكون مهمته أسهل وأثره أكبر مما لو كانت الظروف غير ذلك، وهكذا تبدأ عملية التصاعد الحلزوني بين الانجاز العملي والنشاط الفكري، فكل انجاز عملي في ميدان الوحدة يستثير نشاطاً ثقافياً وحدوياً، وهذا بدوره يمهد الطريق إلى انجازات وحدوية جديدة، وهكذا. في مثل هذه الاوضاع التي يتفاعل بها الفكر مع العمل تظهر النظريات المؤيدة والداعية إلى الوحدة، والمفندة للتجزئة، وتخرج التحليلات المفسرة للواقع. وبعبارة أخرى عندما تصبح الوحدة هي الاتجاه السائد والرأي المسيطر يتجاوب الفكر محللا ومفسراً، وبالتالي مؤيداً لذلك الاتجاه بشكل نظريات، تماما كما ظهرت أدبيات

ما بعد الانفصال ونظريات وضع التفكك والتجزئة. وذلك هو الوضع الطبيعي والدور الحقيقي للفكر، وهكذا كان في كل التاريخ، فجميع النظريات التي ظهرت في مجال العلوم الاجتماعية (ان صح التعبير) كانت تفسيراً لروح العصر السائدة آنذاك، أي أنها تفسير للواقع الذي فرض نفسه.

كل هذا التطور السريع في اتجاه التوحيد الناتج عن التطور السريع في تفكير وسلوك وأحاسيس الانسان العربي وبالتالي في التفكير والسلوك العام في الوطن العربي يمكن أن يحدث في ظل حرب تحرير الوطن والدفاع عن الوجود ورفع المهانة والذل عن الشعب وانقاذ شرف الأمة من دولة اسرائيل والصهيونية. إن حرب التحرير هي التي يمكن أن تقلب أوضاع الوطن العربي وتضعه في طريق الوحدة وتدفعه نحو الرقي والتقدم بكل ما تعني هذه الكلمات من أوضاع وأهمها تحقيق الوحدة القومية. إن وضع الجدية، والصراع من أجل البقاء، والتحديات من شأنها أن تختصر الزمن الذي يستغرقه المجتمع في عملية التطور الاجتماعي والنضج السياسي والقومي. إن التغييرات العميقة التي تحدث في الانسان أثناء الحرب التحريرية تفوق بسرعتها وكثافتها ما يحصل في عملية التطور الطبيعي البطيء في وقت السلم، إذ لا شي أكثر فعالية في غرس المثل الجديدة من التجربة الحية، وما عدا ذلك يكون في عداد الوعظ والارشاد. كما أن تحديات الحرب وظروفها الجديدة هي التي تستثير في الانسان ميول الدفاع عن الوجود والتغلب على المخاطر وقهر التحديات تماماً كما يستثير اللقاح مناعة الجسم ضد المرض الملقح به.

إذا كانت آثار حرب التحرير الطويلة الامد هي كما مر ذكره، فكيف يجب أن تكون نظرتنا لها نحن العرب حكومات وشعباً؟ وأين هي تلك النظرة مما هو موجود الآن كما ظهر من تصرفاتنا أثناء الحرب الأخيرة؟ إن حرب التحرير التي ستضعنا في بوتقة الانصهار وغسيل النفس وتنقيتها من أفكار وسلوك التأخر والتجزئة والانحلال وتضعنا في طريق التقدم والتوحيد والقوة عن طريق خلق الانسان العربي الجديد، كيف يجب أن يكون موقفنا منها؟ إن حرب التحرير التي هي الطريق الوحيد إلى تحرير فلسطين وجميع التراب العربي والطريق الوحيد إلى تكوّن الدولة العربية الموحدة العصرية، يجب أن نتقبل ثمنها ونرتضي من أجلها ومن أجل نتائجها كل ما يأتي معها من مصاعب وما يصاحبها من آلام، فبقدر النتيجة يكون الثمن. وليس من خطأ ذهني أكثر شيوعاً في المجتمعات المتخلفة من الرغبة في النتائج الكبيرة دون الاستعداد

لدفع الثمن الذي يتطلبه ذلك. علينا أن نتحمل أعباء الحرب المادية والمعنوية، علينا أن نتحمل دماءها ودموعها وآلامها ومعاناتها، أن نتحمل الدمار والاحتلال والتشريد وتعطيل الحياة الاعتيادية وخراب المرافق العامة ونقص الغذاء والامراض وفقدان الامن والهدوء، والحرمان من ملذات الحياة الاعتيادية وفقدان الحرية الشخصية والتعرض للبشاعة والقسوة واضطراب المثل والقيم السائدة، وعلينا أن نتحمل كل ذلك لفترة طويلة من الزمن لنستطيع في النهاية أن نحقق ما نصبو اليه. وباختصار علينا أن نكون مستعدين تماماً لأن نضحي بكل شيء، تماماً بكل شيء، في سبيل كسب نتيجة الصراع، فلا يبقى شيء مادي أو معنوي أغلى من المعركة ولا تبقى إمكانية لا تزج في المعركة ولا يبقى أحد أو قطر لا يساهم بالمعركة. إذن فالحرب مع اسرائيل والصهيونية هي مسألة تتعلق بمستقبل الأمة العربية لأنها الطريق الاكيد لوحدتها القومية ولنهضتها الحديثة. فهل كانت نظرة القيادات العربية (التي خاضت الحرب أو التي لم تخضها) إلى الحرب مع اسرائيل والصهيونية قائمة على هذا الاساس؟ إن الدعوة إلى الحرب الطويلة الأمد المنبثقة من اعتبارات عسكرية فحواها أن طول أمد الحرب يؤدي إلى اضعاف وانهزام اسرائيل دعوة مقبولة، ولكن أهميتها تبقى مقصورة ومتعلقة بمدى صحة تلك الاعتبارات العسكرية وثبوتها في الواقع العملي للحرب، ولكن حرب التحرير الطويلة الامد المقصودة في هذا المجال تقوم على اعتبارات قومية وحضارية وذلك لعلاقتها بمسألة توحيد الأمة وتبديل أوضاعها جذرياً. إن الواضح الاكيد أن الحرب الأخيرة قد صممت على أساس سياسي بحت فأهدافها سياسية وهي جلاء العدو عن الاراضي العربية المحتلة. ان مجرد اندلاع الحرب قد فجر بدايات الصراع ووضع الأمة في بداية وضع الجدية والتحدي وبدأت بوارق الامل، ولكن كل ذلك قد توقف أو كاد بتوقف الحرب وهي لما تزل في بداية مفعولها.

وهكذا وضعت الأمة في وضع سلبي من جديد، وتعرضت إلى آثار سلبية جديدة، وأوضاع نفسية مثبطة ذات آثار معكوسة. إن التهديم النفسي الذي يمكن أن يحدثه الصلح مع العدو أو مجرد الحديث عنه كبير جداً بالنسبة إلى أمة تعرضت لما تعرضنا له من نكبات وعوامل انحلال. فماذا تكون هذه الحرب السياسية قد عملت فينا؟. انها، أولاً، فرصة تاريخية مضاعة، كان من الممكن أن تكون بداية الطريق لوحدتنا القومية وصعودنا في التاريخ من جديد. وهي ثانياً، وحتى في حدودها السياسية، سكين ذات حدين. فالتهديم النفسي الذي تتعرض له الأمة من الصلح مع العدو سيكون ثمناً باهظاً للكسب السياسي المستهدف، أي الانسحاب الجزئي من

الاراضي العربية المحتلة (في حالة تحققه فعلاً).

إذن ماذا نستنتج عن القيادة العربية من خلال كل ذلك؟ لعل أهم استنتاج هو أن تلك القيادات ليست ذات نظرة تاريخية، وليس لها أفق تاريخي يستهدف مستقبل الأمة العربية ويتناول قضيتها الكبرى في الوحدة القومية، فمطامحها بسيطة، وأهدافها آنية، واستعدادها للتضحية محدود، ونظرتها قريبة. وباختصار، ان محور نشاطها سياسي وليس تاريخياً.

صدر من هذه السلسلة

الدكتور سعدون حمادي

الوحدة والثورة والعوامل الذاتية



منشورات الطليعة 1987



